عشرون يوماً هزت العالم

(٤-٦)

وارد بدر السالم

عيد ميلاد تحت القصف

أن تستمر الحياة ، يعني أن تحتال عليها بأية طريقة كانت ، ولن يلزمك أحد بغير طريقتك التي تبتكرها.

صباح السابع والعشرين من مارس (آذار) فتح صفحته على صحوٍ ساطع بالشمس ، فالليل الفائت ابتلع العاصفة الرهيبة بين طياته ، وبدت الطرقات الصباحية والأرصفة والبيوت (وما زالت) كما لو صُبغت بلون صحراوي وارتدت جلداً من رمل بلون وردي فاتح وآخر بني معتم (وما زالت) بينما أسفر قصف الليل عن انقطاع الاتصالات الهاتفية ، صلتنا الوحيدة ببعضنا ، ليكون الموقف أكثر قلقاً : أن تنعزل الناس قسراً وتعيش خارج محيطها الاجتماعي اليومي في وقتٍ عصيبٍ ملغومٍ بالموت واللحظات المشبوبة بالنار والشك والغموض والحسابات غير المضبوطة في كل حين ، مع زحف الجيوش الغازية من الجنوب صعوداً الى بغداد ، وهي تقضم المسافات بإنزالاتٍ بهلوانية ، لها ما يبررها على مستوى الإعلام النفسي ، مادامت جبهات القتال منحسرة على نفسها ، تدافع من داخل قوقعة لا ندري متى تنطبق عليها..

الصحو الساطع بالشمس حمل ليلاً استثنائياً بارداً مضمخاً بدخانٍ قاتم يطوق الأنفاس ويحاصر بغداد في حزام أسود فاحم ، لكنه كان ليلاً عاتياً بالقصف الصاروخي وأسراب الطائرات المتناوبة التي تزرع الموت بيننا ، وفي أي مكان ، وبفن عالي المستوى والأداء القتالي من القنابل الانشطارية والكروية والعنقودية والصوتية وأنواع أخرى تنفجر بالحركة والاهتزاز، تلقى في ليلِ حالك أو نهار متداخل حد أطرافه في جنون حربي لا مناص من الاعتراف بسطوته علينا وتأثيره المضاعف في تطويقنا كبشر عزّل لا نملك من الحياة غير رحمة من السماء ، قد لا تأتي الآن ، فكبار السن يقولون : هذا الغضب من خطايانا وأخطائنا ! ولكي لا نستسلم أو نخون الوطن في محنته الكبيرة ، قبلنا الحياة بل المواصفات التي ليس من الإنصاف وصفها الآن أو التندر عليها كحياة ماتت بموت عصر أسود ، غير أننا نعيش ، الآن ، بأفراحٍ مبتكرة وأخرى تحمل قدراً من الغرابة أو الفرادة أو البطر ،، فهذا ولدي علي على موعد مع عيد ميلاده الرابع عشر ، أقنعتني أمه أن نعمل له (حفلة) صغيرة في البيت وندعو بعض الجيران ! ومع أن القصف الجوي كان كبيراً، كانت الحفلة الصغيرة تتكون كفكرة ومن ثم نتيجة ، يداخلني إحساسٌ أبوي من أن ولدي لا يعي غير نرجسيته المدللة واحتفاله السنوي في مثل هذا اليوم (٢٧-مارس) ولما كانت الغارات تشتد ، كانت مائدة الميلاد تتفتح بزهور سوداء ، كان شذاها من بارود وعبقها من دخان وغبار يملأ حواصلها الصغيرة . ظلت تتلامع بين أربعة عشر إصبعاً من الشموع الباكية على رنين القصف واهتزازات البيت ، بين فرحة طفل صادقة وفرحة كاذبة لأبوين وجدا فسحة بحجم الكف لأن يصطنعا الفرح الكاذب ، وينتصرا على يوم واحدٍ من أيام الحرب بطريقة ما ، قد يكون فيها من السادية والعنف النفسي الشيء الكثير : أن ترقص تحت هدير الطائرات وتغني على اصطفاق الكروزات المتخاطفة كالنسور الصلعاء ، وتضحك على زمنٍ يموت الناسُ فيه واقفين على شواهد قبورهم ،، وكنت في تلك اللحظة المفرحة لولدي ، أقارن بين حياةٍ وحياةٍ ، واحدة سوداء كفحمة وأخرى بيضاء كثوب عروس ، الأولى عبارة عن قذيفة تتفجر في كل يوم ، والثانية وردة شقراء تحملها صدور النساء في كل زمانٍ ومكان .....إلا العراق ، وطني الحبيب ، فقد كُتب عليه أن يعيش بجوار قنبلة!

سقوط النجف

لم تكن الحكاية (كذبة نيسان) عندما سقطت مدينة النجف الأشرف بيد القوات الأمريكية ، وهي أول مدينة تدخلها قوات أجنبية منذ الاحتلال البريطاني القديم للعراق ، ولعل الشارع العراقي أضحى منذهلاً أمام هذا الدخول المفاجئ لمدينة مقدسة معروفة بتاريخها الديني . وبقيت بغداد تقلّب نشرات الأخبار وتهرع الى (قناة العالم) الإيرانية التي كانت تبث برامجها إلينا بلا ستلايت ولا رقابة عراقية ، لترى جنود المارينز ودباباتهم ومدرعاتهم تجوب المدينة وتطبق عليها من كل جانب ، فيعود الكلام المحظور يتفتح في زهرة الصدور المخفية منذ ثلاثة عقود ، يعود الكلام علناً في واجهات الطرق ، في المقاهي والبيوت ، وظل أهل بغداد يزيدون من هجراتهم خارج العاصمة ، محتسبين لما هو أسوأ ، وأخذ الأمل يدبّ بين الجميع من أن النهاية أوشكت ، فسقوط النجف علامة غير محسوبة في مجريات الحرب ، وهذا بتلخيص شديد أن القوات الغازية بدأت تقترب من هدفها الكبير : بغداد

عرين الأسد

مطار صدام!

النقطة الفاصلة في مسار الحرب ، ونقطة التحول الستراتيجية في (الصدمة) و (الرعب) صدمة البرابرة المخلّصين ، ورعب التحول الدراماتيكي السريع الذي فاجأ المحللين العسكريين والستراتيجيين ، فالمعارك في هذا الحيز المكاني المعروف كانت غريبة حقاً ، بين عدو غازٍ اطل على وجه العاصمة ، وبين بغداد التي بدت منذ الوهلة الأولى ، وكأنها لا تريد القتال بشكل صحيح وإلا كيف يمكن تفسير أن قوة أمريكية صغيرة تشبثت في هذا المكان بقوة وإصرار وعناد دون أن تسحق بالكامل، ودون هجوم مقابل معتاد في مثل هذه المفاجآت العسكرية ؟ وكيف نفسر صمت المقاومات الأرضية منذ يومين أو ثلاثة ! وهو صمتٌ مريب يبعث على التساؤل ، والطائرات الأمريكية تصول وتجول حتى بارتفاعات ليست شاهقة ! وإذا ما كانت الإجابة عسيرة الآن فإن الشارع العراقي ، وهو يتقبل الصدمة بفرح مزدوج ، وخوف أيضاً ، كان ضائعاً إزاء هذا التطور الحاسم ، فالحرس الجمهوري ، وهو القوة الضاربة الكبرى في الجيش العراقي ، لم يقاتل على ما يبدو ! ولم نسمع عنه إلا بهجوم واحد لا تعرف نتائجه بعد ، ومن جانب آخر فإن الوزير الصحاف ، ماكينة الإعلام العراقي الناجحة في وقتها ، كان يهزأ من هذا (الحدث) ويطالب الصحفيين ووكالات الأنباء والفضائيات بعدم تهويله وتوصيفه بما لا يستحقه ، وبين واقع الحال الذي بات ملموساً وفي قبضة اليد من أن المطار قد سقط تماماً ، وأن الحرب ستدخل البيوت من أبوابها الواسعة ، وهو ما كنا نخشاه ، فالغزاة في عرين الأسد ، وهم على مشارف صيدٍ ثمين ، ولن يبرحوا المكان إلا على أنقاض بغداد ، وهو الأمر المخيف للبغداديين الذين آثروا أن يتركوا البيوت ليلتحقوا بالمهاجرين الأوائل ! قبل أن يتفاقم الوجود العسكري الأمريكي وتتطور معركة بغداد التي ينتظرها العالم ، وكما وعد بها صدام حسين من أنها أم الحواسم ! وترك الثقل الأكبر لإدارتها للحرس الجمهوري والحرس الخاص والميليشيات المدربة والأجهزة الحزبية والأمنية الساندة ، وهو الأمر الذي ترك ظلاله النفسية المريرة على عموم سكان العاصمة ، الذين لم يجدوا بدأ من تبرير أكبر هجرة جماعية أخيرة حدثت في الرابع من أبريل ، وهو اليوم الذي عمدت فيه القوات الأمريكية الى قطع التيار الكهربائي عن العاصمة في الساعة الثامنة مساء.

كانت الهجرة الأخيرة لأهل بغداد على جانبي الكرخ والرصافة ، اضطرت فيها الناس أن تمتطي حتى الخيول الهزيلة والحمير الضامرة !وعربات الخشب ، في جو اشتبكت فيه صفارات الإنذار وسيارات الإسعاف والشتائم العلنية والتمني العاجل أن ينقلب عالي الأمور الى سافلها وتنشق الأرض ، لتبتلع الظلم والظالمين والسلطة والمتسلطين ، خرجت بغداد عن بكرة أبيها وتوزعت على القرى والضواحي ، وفي جانب الرصافة شهد الطريق المؤدي الى (بعقوبة) أكبر هجرة فوضوية ازدحمت فيها السيارات مع العربات والخيول والدراجات الهوائية والشفلات وسيارات القمامة واللوريات وحافلات نقل الركاب والسيارات الحكومية ، فيما اضطر قسم كبير من العائلات أن تسير على الأقدام دون هدف ، ودون أن تعرف أين تقضي أيامها القادمة! ولم يكن أمامها إلا المدارس القروية والمزارع والطرقات العارية او هياكل البيوت المتروكة.

كان المشهد بهذا الوصف المقتضب سينمائياً ، حزيناً اكثر منه حقيقة مريرة لبشرٍ عذبتهم الحروب وأقصاهم الحصار عن الحياة ، بسبب نزوات رئيس أحمق تملكه جنون العظمة وتسلط على الرقاب وقاد البلاد من خراب الى خراب عبر اكثر من ثلاثة عقود اكتظت بالمآسي والتعاسات والعزلة الجماعية ، فكان الخلاص منه مطلباً عاماً ولو على يد شيطان مارد ، حتى لا تعود أيام القمل والخبز الأسود وشظف العيش.

الوطن في غرفة الإنعاش

ولعل هذا الانهيار النفسي الجماعي قد انسحب الى الميليشيات الحزبية والأمنية التي تحمي داخل بغداد من أهلها! وبالتالي الى الجيش المرابط على حدود العاصمة ، فالهجرات المتتالية كانت تمر من أمام مواضعه ، فتترك مردوداً سلبياً هائلاً لجنود سيتركون دباباتهم بحثاً عن ذويهم ، وساعد في مثل هذا الشعور لديهم أن القاصفات كانت تشعل كل خطوط التماس والتموين بطريقة قذرة ، لا رحمة فيها ، لتخلق رعباً مضاعفاً في دواخل الجنود والضباط المدافعين عن.. عن ماذا ؟ عن بغداد التي تقطعت أوصالها ! عن الأهالي المذعورين في كل الأوقات! عن رئيس جاء بالغزاة إلينا! عن قيادة لا تعرف غير الدم والقتل والحروب.

بدا جلياً إن كل شيء انتهى ، وقبل حسم الحرب كلياً ، تلألأت في ليلة السادس من أبريل نجوم وفيرة ، لمعت في ليل بهيم ، وعلى صفحة سوداء غرقت بعتمة كاسحة ، تبرقشت بنجوم فضية كانت غائبة منذ سنوات عن سماء بغداد ، وعلى غير العادة انطبق ليل الفحم بثقل كبير ، رافقه قصف جوي متفجر ومتواصل ، إضافة الى قصف مدفعي ثقيل شمل كرخ بغداد ورصافتها من جهاتٍ مختلفة ، وهذا يعني حقاً أن القوات الأمريكية أوشكت على دخول بغداد ، بل إنها على مشارفها ، فهذه المرة الأولى التي تسقط فيها قذائف مدفعية ، مما يعني أنها تقدم الإسناد الأرضي لجنود لا نعرف أين وصلوا ، ويعني أيضا أن بغداد مطوقة حتماً ، غير أن اليوم التالي (السابع من نيسان) قرّب لنا القذائف ، كان وشيشها يمرق في السماء ، مؤذناً بتحولات عسكرية حاسمة ، وقتها لم أستطع أن أصل الى أبعد من منطقة (المنصور) حيث صارت العاصمة جبهة مخيفة ، وكان من اللافت للنظر تسرب جنود من الحرس الجمهوري الى شوارع بغداد ، كانوا في حالٍ يرثى لها ، كانوا مشدوهين ، كإنما فلتوا من الموت قبل قليل ! وعندما تسألهم يقولون (جاءتنا أوامر بالانسحاب الى البيوت!) وكانت البيوت خالية والعاصمة شبه مهجورة ، خالية من البشر والقطط والزرازير ، وكان مقاتلوها يقلّون بالتدريج ، وتهجر المواضع المكيّسة بالرمل ، فيما ظلت قذائف المدفعية تدك كل مكان بشكل أعمى ، فازدادت الهجرة الفورية لمن تبقى من الناس الذين كانوا يعوّلون على الوقت المتبقي والقدر والمصادفات التي ستصبح حقيقة أكيدة ، لاسيما عندما وصلت وحدات من المارينز الى منطقة (الزعفرانية) خاصرة بغداد الجنوبية ،تتقدمهم صواريخ الكاتيوشا والقذائف المندفعة الى عمق المدينة ، التي أكدت أن بغداد أخذت تخترق من كل جهة ، فاختلطت علينا الجهات ، وتكهرب جو العاصمة المترنحة على نحو سريع ، ووصلت القذائف الى (زيونة) و (شارع السعدون) في قلب بغداد ، وكانت الأرتال الأمريكية تزحف من ثلاث جهات وتحاصرنا ، دون أن تعترضها أية مقاومة ، ولم تجدِ محاولات (فدائيي صدام) نفعاً في مواجهة الغول المندفع ، كما بات واضحاً أن قوات الغزو وجدت الطريق سالكاً الى ما تريده ، فأكملت حصارها من الجهة الرابعة عبر (الراشدية) ، في الوقت الذي كانت فيه الطائرات تقدم إسناداً حيوياً هائلاً لا مثيل له في تاريخ الحروب ، وبأسراب تتناوب مع الدقائق طوال ليل السابع من أبريل ، فكانت تحيل السماء الى كتل من اللهب والهدير وعواصف النار ، ولم يكن وصول القوات الأمريكية في هذا اليوم إلا توقيتاً نفسياً معروفاً ، فهو المصادف ذكرى ولادة (الحزب القائد) وأظن أن الدلالة النفسية نجحت في كسر شوكة هذا اليوم الذي تكبد العراقيون جراءه خسائر كبيرة لا تعوض على مر ثلاثة عقود ، وعندما وصلت بضع دبابات الى فندق الرشيد ، بعد إن ضلت طريقها ، وجدت أن كل شيء معدا لاستقبالها!

غبار وغبار

يوم الثامن من أبريل كان يوم غبار خانقاً..

وهذه عادة الطبيعة لدينا : أن تغبر الدنيا كلما ألّمت بنا الخطوب ... وتمتلئ كتب التاريخ بأيام شبيهة بهذا اليوم..

الأيام المغبرة في العراق كثيرة وكثيرة.....

الروائي والكاتب العراقي نجم والي:

- راعني شكل الخراب الذي حل بالإنسان العراقي.
- غراس هو الروائي الوحيد الذي فاز بنوبل وهو ليس بروائي.

دمشق ـ ابراهيم حاج عبدي

نجم والي قاص وروائي عراقي اصدر عدة مجموعات قصصية منها: " ليلة ماري الأخيرة " و " فالس مع ماتيلدا "، واصدر ثلاث روايات هي " الحرب في حي الطرب "، و " مكان اسمه كميت " ومؤخرا رواية " تل اللحم " التي أثارت ردود فعل متباينة في الأوساط النقدية وكذلك على مستوى القراء تراوحت بين السخط والرضا ، وهو يتقن الألمانية حيث يعيش في مدينة هامبورغ الألمانية منذ اكثر من عشرين عاما وله مؤلفات بهذه اللغة، كذلك يتقن الأسبانية والإنكليزية.

إضافة الى ذلك فهو مجتهد في الكتابة للصحافة العربية في مختلف القضايا المثارة سواء تلك المتعلقة ببلده العراق او القضايا التي تستحوذ على اهتمامه على الصعيد الشخصي، وهو يركز، خصوصا في مقالاته الصحفية، على سيرة الأفراد بوصفهم المحرك الأساسي للتاريخ وفي هذه النقطة يفترق فيها عن الماركسية التي ترى بان التاريخ تصنعه المجتمعات.

فيما يلي حوار معه جاء بمحض المصادفة فأثناء توقفه في دمشق قادما من العراق استعدادا للعودة الى ألمانيا، زار دار المدى وقدم نفسه: "نجم والي"، رنين الاسم حرك في داخلي فضولا صحفيا، وبينما هو يتفحص عناوين الكتب أفصحت له عن رغبتي في إجراء حوار معه، لم يتردد في الموافقة، فرتبنا هذا اللقاء الذي تم على أنغام أغنية يقول مطلعها " بلغي يا ريح عنا. . . أهل بغداد السلاما "، ومن هنا بدأ الحديث:

*بعد غياب دام اكثر من عقدين كيف وجدت العراق، كيف عانقت هذا البلد الجريح، وما الانطباع الذي تركه لديك البشر والمدن ؟

- منذ ان سقط النظام في ٩ نيسان الماضي كنت أريد زيارة العراق لكنني كنت مترددا لأسباب عدة منها ما يتعلق بالوضع غير المستقر ومنها ما يتعلق بأسباب أخرى لكنها أساسية فقد كان لدي خوف من ان تتحطم صورة حلمية جميلة لدي اخترعتها وشكلتها عن البلاد احتفظت بها خلال سنوات الغربة، وهي صورة ليست مخترعة من الوهم إنما مبنية على أساس مجموعة من العوامل التي تأسست على ما أسميه بـ "الذاكرة الفعالة " التي تفاعلت مع كل الأحداث التي جرت بالعراق وعلى أساس كل ما كنت أتخيله من تغيرات وكنت أخشى ان تكون الصورة الأصلية الواقعية غير متطابقة تماما مع الصورة التي في ذهني وحين وصلت الى العراق شعرت تدريجيا وكأنني شخص ينزل من قمة جبل الى الوادي على دراجة مسرعة يصعب التحكم بها او وقف مسارها.

وما رأيته شكل صدمة لي، ليس على المستوى غير المتوقع، بل على مستوى ما هو ابعد من المتوقع، فكنت اعلم تماما ان هناك خرابا في العراق نتيجة الحروب الكثيرة، لكن ما راعني هو خراب الذات وليس خراب البنى التحتية في المدن والأرياف والتي يمكن إعادة بنائها لكن الخراب الكبير الذي تصعب إعادة بنائه هو خراب الإنسان، وكانت لدي حدود متخيلة لخراب الإنسان لكن ما لقيته يفوق كل تصور برغم انني كنت أعيش جانبا من تمثيلات هذا الخراب بالعراقيين الذين قدموا في السنوات الأخيرة الى المنافي الأوروبية حيث أعيش، لكن كنت أجد ذلك خارج المكان الذي يتحرك فيه العراقيون. ما وجدته في داخل العراق هو ان العراقيين " مذلون مهانون " فلم أجد إنسانا عراقيا يسير ووجهه الى الأعلى وحتى اختيارهم للألوان والملابس وحتى البيوت أصبحت ذات لون واحد وجدت الإنسان العراقي ذا بعد واحد او لا بعد له. . نمطيا. . مهمشا ومذلا لنفسه.

*هل تقصد بان الإنسان العراقي تآلف مع واقعه المرير، حتى غدت الحياة القاسية التي كان يعيشها في ظل حكم الديكتاتور طبيعية، واعتيادية ؟

- نعم، لانه يعتقد بانه حينما يتآلف مع الحياة القاسية ويصل الى هذه المرحلة من الإذلال يستطيع ان يعيش بسلام، فأنت تستطيع العيش بسلام حينما تسمح للآخر بان يضطهدك ويشوه إنسانيتك وهذا ما حصل للإنسان العراقي المغلوب على أمره سواء على مستوى الإنسان العادي او النخب المثقفة.

ومن جانب آخر رأيت فروقات في مستوى الخراب فيما يتعلق بالبنى التحتية في المدن فالخراب في بغداد هو اقل نسبيا من الخراب الذي حل بمدن الجنوب وخصوصا البصرة المدينة التي تشكل بالنسبة لي اكثر من مدينة واقعية بل هي مدينة متخيلة بكل ما حملته من بهاء طوال تاريخها كونها كانت مدينة البحارة والحانات والليالي الاحتفائية الكرنفالية. الآن تكتشف بان هذه المدينة لم تهمل فقط أثناء حكم النظام السابق إنما خربت أيضا، فالديكتاتوريات دائما هي ضد الجمال، وتحاول ان تثبت ذاكرة أحادية خاصة بها وموديلاً خاصاً بها دائما، والموديل الذي كرس في العراق هو موديل قادم من منطقة واحدة وعنوان واحد هو: العوجة ـ تكريت، فمثلا أنا ذهبت الى البصرة ابحث عن مكانين كانا يشكلان جزءاً من ذاكرة الصبا والمراهقة واقصد حانتين كتبت عنهما كتابين هما حانة ماري وحانة ماتيلدا، فلم أجد سوى الأطلال.

*تقصد بالكتابين المجموعتين القصصيتين " ليلة ماري الأخيرة " و " فالس مع ماتيلدا " ؟

- نعم بالضبط، فجزء من مشروعي الكبير في الخارج كان يتمثل في جماليات المقاومة، فعندما تبتلى بنظام يلغي الذاكرة و تقوم سياسته على إلغاء الجمال و يجند جيشا من المثقفين و الإعلاميين داخل الوطن عن طريق الرشاوى والأموال الاغراءات المادية والمعنوية وشراء الذمم لمحو الذاكرة و لإشاعة الجهل في العراق فأنت تشعر ككاتب بان عليك ان تثبت جماليات المكان وجماليات العراق إزاء هذا الخراب الذي كان يحدث وذلك بان أخذت على عاتقي تثبيت ذاكرة البصرة والذاكرة المتغيرة أثناء الحرب مع الوقت، فالبصرة اكثر المدن العراقية التي عانت أثناء الحروب جميعا إضافة لقمع النظام وتخريبه لهذه المدينة فأخذت نماذج لهذه المدينة من بصرة الكورنيش وبصرة الخشابة والزنوج ورقص "الهيوى " و الغناء البصري المعروف وبصرة البحارة و الموانئ و بصرة البيوت والأسواق القديمة كل ذلك حاولت إنقاذه عبر الكتابة.

*ألم تجد شيئا من هذا الزخم والجمال الذي أرشفته في قصصك على ارض الواقع ؟

- لا، فقد تغيرت ملامح مدينة البصرة وأصبحت باهتة إضافة طبعا الى أماكن أخرى، فحتى في بغداد ثمة شوارع كثيرة محيت وفي جميع المدن العراقية رأيت تغييرا و دمارا لا يمكن تصوره.

*في ضوء ما تقول، لو قيض لك ان تحاكم صدام، كيف ستحكم عليه ؟

- لو أتيح لي ذلك فلدي حكم جاهز، لكنني لا أحاكم المجرم بمنطقه بل أقول: لو كان صدام شخصية أدبية في رواية مفترضة فأنا سأحكم عليه بان يبني العراق حجرا حجرا وبالألوان من زاخو الى البصرة.

*كمثقف وروائي عراقي كيف تنظر الى مسالة الفيدرالية التي يطرحها الكرد في العراق والتي تثير وجهات نظر متباينة ؟

- أنا شخصيا مع الأكراد بكل ما يقررونه هم لأنفسهم لأنني اعتقد اننا كعرب ليس لدينا أي حق في تقرير مصير الأكراد فيكفي ما عاناه الكرد من الحكومات المركزية المتعاقبة وعندما أقول الكرد لا اعني القيادات السياسية بل اعني الأكراد كبشر، كناس، كقومية لها الحق في ان تعيش بكرامة.

وبشكل عام اعتقد ان الأكراد هم اكثر جدارة وأحقية بالحديث عن أنفسهم طالما انهم عانوا من الحكومات المركزية المتعاقبة التي هي عربية بالأساس و ذروة القمع كانت مع الحكومة البعثية.

ودعني أقول بصراحة ووضوح أنا مع الفيدرالية طالما هي خيار الكرد الآن، لكن لدي تصور للفيدرالية فهي كنظام يمكن ان توجد وجهات نظر مختلفة بشأنه والإشكال الذي يحدث لدى الكثير من العراقيين الذين يرفضون الفيدرالية يكمن في جهلهم بطبيعة هذه الفيدرالية وما المقصود بها ؟ونحن لدينا مشكلة عدم وعي وهنا أقول من منطلق المحبة والصداقة بان على الكرد ان يوضحوا الفيدرالية بدقة، بمعنى التعامل بشفافية و وضوح مع الفكرة لإزالة أي التباس او غموض قد تنجم عنها مواقف رافضة.

*لننتقل من هموم السياسة الى هموم الكتابة، فقد تشكل في المنفى أدب عراقي له خصوصيته و هويته كيف تنظر الى هذا النتاج، و ما مدى تقاطعه مع أدب الداخل ؟

- ظهرت تحت عنوان أدب المنفى تجارب مختلفة ومتباينة لكن وبصورة عامة اعتمد المنفي ـ المبدع على الاستذكار والنوستالجيا والحنين الذي وصل في بعض الأحيان الى حد البكاء على الأطلال و خاصة في الشعر، ان ما كتب في المنفى هو في غالبيته نماذج تابعة لما يحدث في البلاد و يظل على الحافة و يطرح شخصية الضحية المغرقة في الحنين للام، للحبيبة، لاماكن الطفولة، وتضمين ذلك إشارات ورموز معينة عن باب البيت والشرفة وبنت الجيران. . . وكأنما المكان يبقي ثابتا والإنسان كذلك، طبعا ضمن هذه الملامح العامة هناك تجارب خاصة ومتميزة استطاعت ان تطور الرواية العراقية بشكل حر وبالتالي استطعنا بعدها ان نتحدث عن وجود "رواية عراقية" لان الرواية التي كتبت بالداخل خلال فترة حكم صدام حسين لا يمكن اعتبارها رواية فهذه تتطلب نوعا من الحرية والنظرة العميقة للمجتمع و هذا ما لم يتوفر لها فكان أدب الداخل العراقي ـ مع استثناءات قليلة ـ أدب تعبوي، خطابي وتقريري يمجد الحروب الحمقاء تحت أسماء "القادسية" و "لهيب النار" والتي حصلت على جوائز صدام وأم المعارك...

ومن هنا ظل الأدب في الداخل يتطور بمعزل عما يجري بالفعل من كوارث. أما الأدب البديل الذي حاول ان يقاوم فلجأ بدلا من اليومي الى التاريخ وراح يتحدث عن طريق الرموز والأسطورة والخيال والعودة الى بابل والسومريين ووادي الرافدين كما فعل محمد خضير ومحمود جنداري مثلا وهو أيضا لم يكن له علاقة بعذابات الإنسان المعاصر وخراب البلاد.

وكان ثمة اعتقاد ان هناك أدبا آخر موجودا بالأدراج المغلقة، مكتوبا بحرية ودون رقابة داخلية لكنني كنت اشك في وجود مثل هذا الأدب لان الخوف والرعب والتهديد كان يصل الى حدود خوف الإنسان من ظله فكيف إذن للإنسان المهدد بالمحو الفيزيائي ان يكتب بحرية فهذا الشعور يمنعه من الكتابة بحرية، أضف الى ذلك ان تجارب البلدان الأخرى مثل أسبانيا فرانكو او ألمانيا هتلر او برتغال سالازار او إيطاليا موسوليني أثبتت انه لم يكن هناك أدب بالأدراج وكذلك في العراق تبين بعد سقوط الديكتاتورية ان الأدب الوحيد كان أدب التغني ببطولات النظام الذي لم يترك سوى خيار التمجيد له او الصمت او المغادرة.

*الكتابة بالنسبة لك صنعة او حرفة، ولك محاضرة في هذا الخصوص عنوانها (الكتابة. . . اجمل حرفة في العالم) تقول فيها " كل البشر عندهم أياد متشابهة. الأيدي تخدم لكتابة "الوصايا السبع" و "الكوميديا الإلهية" مثلما تخدم في صنع الصواريخ والقتل بالسكين. . . كيف تشرح لنا ذلك؟

- أنا أردت ان انزل الكتابة من عليائها لسبب بسيط وهو اننا مجتمعات غير ديمقراطية لا في السياسة فحسب بل حتى في علاقاتنا بالأدب. فالأديب بدوره، كالسياسي، يتربع على عرشه بعيدا عن الناس مدعيا انه في انتظار الوحي والساحرات وبانه مخلوق فوق العادة لا يشبه الإنسان المقموع الذي يعاني الهموم والمشاكل يومية والذي لا يملك ثمن علبة دخان او دواء، أنا أردت سحب هذا البساط و تعرية ادعاءات لا علاقة لها بالواقع، وثمة أمثلة كثيرة، خذ مثلا اتحاد الكتاب العرب:أشخاص جالسون في أبراجهم العاجية و يدعون الأدب ولا علاقة لهم بالأدب. الأدب صنعة و من حق أي إنسان ان يصبح أديبا لكن ليس كل من يكتب هو مبدع بالضرورة مثلما ليس كل من يصنع كرسيا يصنعه بالمهارة نفسها، بتعبير آخر كل إبداع هو صنعة لكن ليس كل صنعة هو إبداع.

* إذا فأنت تنفي مسالة الموهبة والوحي والإلهام ؟

- لا، الموهبة لا انفيها بل انفي مسالة الوحي والإلهام. أنا إنسان واقعي لا انتظر الساحرات إنما الموهبة موجودة وهذه أيضا تتشكل من خلال التجربة الواقعية اليومية وصحيح ان هناك ميلا معيناً لدى كل إنسان منذ الطفولة ولكن لو درسناها دراسة حقيقية نكتشف لماذا الإنسان يميل الى الرسم او الموسيقى او الكتابة مثلا. هناك شيء في محيطه جعله يميل لهذا الجانب وعن تجربتي الشخصية أذكر ان الأستاذ كان يقول لنا اذهبوا الى المكتبة وادرسوا كتبا للأطفال ولخصوها وكنت الوحيد الذي يهتم، كنت أجد متعة وعلى هذا الأساس تطورت لدي الرغبة في القراءة والكتابة واذكر انني كتبت مرة قصة غريبة بطلب من المعلم عما فعله كل منا في العطلة الصيفية فقد كتبت بأنني كنت خائبا فأينما اتجهت وجدت كلمة ممنوع وفي الأخير وبعد مللي من الممنوع عزمت على الانتحار بإلقاء نفسي في نهر دجلة وعندما احتضنني النهر قال ممنوع ان تبقى في السطح، انزل الى الأعماق وعندها خرجت وقلت لن انتحر. وبعد ان قرأتها قال لي المعلم بعد مجموعة من الأسئلة: ستصبح روائيا وقصاصا ماهرا وهذا ما نسميه الموهبة أي مجموعة تجارب وخبرات مكتسبة تتجمع.

لا أؤمن بمعطى من خارج الإنسان بل هناك شيء ينمو من داخل الإنسان ويتشكل لكن لو قمع في الطفولة يمكن ان يتلاشى وهناك الكثير من الموهوبين قمعوا فلم يبرزوا، وبالتالي فان مقومات الكتابة الناجحة هي الذاكرة والخبرة والفضول بالتعلم، أي كاتب ينبغي ان يملك فضولا غير طبيعي يسمع ويشاهد ويرى ويراقب محيطه فكل ما يحدث في الواقع هو "انسيكلوبيديا" جديدة يومية تضيف له أشياء جديدة، والروائي الجيد يجب ان يكون صفحة بيضاء تتسلم أي شيء جديد ويجب ألا يعتقد ان هناك شيئاً لا يستهوي فضوله، فالكتابة تسير في الطين وتحت المطر وتتكئ على العلاقات اليومية وتوثق أي لحظة جميلة او مريرة....

*على ان يمتلك الكاتب أدواته بمهارة ؟

- نعم وبالدرجة الأولى اللغة، فاللغة هي مثل اللون بالنسبة للرسام هل يستطيع الفنان التشكيلي ان يرسم من دون ألوان ؟بالطبع لا، وكذلك الكاتب اللغة بالنسبة له وسيلة ووطن، وطني أنا هو الكتابة.

*إذا كنت تعول الى هذه الدرجة على التجربة والخبرة فأين إذا دور الخيال في العمل الأدبي ولاسيما أنت أيضا تمزج بين الواقع والمتخيل في رواياتك كما في "تل اللحم" مثلا ؟

- في العراق لا تحتاج الى كثير خيال فما حدث يفوق كل تصور و يفوق كل ما يطلق عليه الواقعية السحرية او السوريالية ففي هذا البلد كل شيء معطى جاهز والروائي الجيد بحاجة الى موضوع جيد ورغبة في القص وفي العراق هذا الشيء متوفر أي توجد مواضيع جيدة بما يكفي ففيه من الفانتازيا بحيث لست بحاجة لان تكون سوريالية او "واقعيا سحريا" او. . . كل شيء موجود اذهب الى بغداد وشاهد ستجد ان كل إنسان هو حالة خاصة وحياته هي رواية بذاتها، ولكن المسالة هي: كيف تنظر لذلك ؟ و بأي عين ؟ ومن أي زاوية ؟ للأسف نحن لدينا روايات أفكار لان الكاتب ينقل ما يعيشه بشكل يومي في الوقت الذي يجب ان يبتعد فيه عن ذلك ويبقي مسافة بين ما يكتب وبين تجربته الشخصية التي يجب ان ينظر لها بتواضع لأنها اصغر تجربة ضمن تجارب الآخرين، وهذا له علاقة بالفكرة التي ذكرتها في إجابة سابقة فعندما ينعزل الكاتب عن الناس في برجه العاجي ويقول بانه ينتظر الساحرات والإلهام فلن يكون مبدعا لسبب بسيط وهو انه ينظر الى تجربته بتعال دون ان يكترث بتجارب الآخرين لأنها في اعتقاده دون مستواه مع انها من الثقل حتى أصبحت على الأرض وبين الناس.

*"تل اللحم" أثارت الجدل، لدرجة بدت ان نقد الرواية في بعض الأحيان تجاوز الرواية الى تصفية حساب مع كاتبها، ما ردك ؟

- كونها أثارت الجدل فهذا معناه انها رواية مقروءة وبعض هذا الجدل نتج، في اعتقادي، عن ان الرواية تعرضت لمحرمات ومقدسات على كل المستويات و حينما قرأوا الرواية شدتهم بما أضافته من معرفة ومتعة، فلا أحد يجبر نفسه على قراءة رواية تتجاوز ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير دون ان يشعر بمتعة. يكاد يكون ذلك مستحيلا، التفسير الأرجح هو ان الرواية بحد ذاتها شدت القارئ سواء الذي أشاد بها او الذي شتمها.

واعتقد ان العمل الجيد يضيف متعة ومعرفة كما يقول بريخت ولدينا، فضلا عن ذلك، ثقافة الإشاعة بمعنى القول بان الرواية تتحدث عن هذا الشخص او تلك الأسرة او ذلك المكان. . . الخ وجزء من مهمة الأدب هو ان يحطم الأصنام، أنت تقرا رواية عندما تجد نفسك فيها أنا لا استمتع بعمل لا أجد نفسي فيه ففي الرواية ومنذ الصفحات الأولى أجد نفسي إما ان أكملها او اتركها لان الإنسان حر ليس مجبرا على ان يقرا رواية.

*الملاحظ انك لم تنتقد من شتم الرواية بل اعتبرتهم قراءك واحترمت رأيهم ؟

- نعم فرواية تل اللحم تحتاج الى أسبوع للقراءة وهذا يعني انني أخذت أسبوعا من أعمارهم وهم غير مجبرين على القراءة، والذي شتم العمل ولم يقرأه عليه ان يصمت، وهذه مفارقة: أشخاص أرادوا شتمي فاجبروا على قراءة الرواية ودفعوا ثمنا من الوقت والجهد وأقول ثمنا لانهم قرأوا عملا لشخص لا يحبونه.

*ألا تجبر نفسك في بعض الأحيان على قراءة عمل روائي ؟

- قد يحدث ذلك لأجل الدراسة وهذه مسالة أخرى أما أن أجبر نفسي على قراءة عمل لروائي مهما كانت شهرته فلم يحدث خذ مثلا غونتر غراس الذي حاولت أكثر من مرة أن أقرأ له عملا حتى النهاية لكنني اعترف الآن بانني لم أقرا له عملا واحدا حتى النهاية فهو ممل جدا و كذبة كبيرة منقولة الى عالمنا العربي ويقرأ في ألمانيا لانه ينتمي الى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي ينتمي له أكثر من نصف مليون عضو وهؤلاء عليهم واجب حزبي بان يشتروا كتبه.

*كيف تفسر إذا فوزه بجائزة نوبل ؟

- غراس هو الروائي الوحيد الذي فاز بجائزة نوبل وهو ليس بروائي، غراس شاعر كبير ومنح نوبل في الرواية خطأ، حاول ان تقرأ طبل الصفيح المترجم الى العربية والتي تعتبر من أهم أعماله وحتى هذه لم استطع ان أكملها برغم اني تربطني به علاقة شخصية وفيها صراحة وهذا الكلام أقوله له وجها لوجه وفي العام الماضي ذهبت معه الى اليمن وكنت مترجما له وفي الغرب يحترمون صراحتك.